عن حوار الحضارات وحرب استئصال الأصالة

منيـــر العكـــش

عن مجلة الديبلوماسي THE DIPLOMAT / لندن، فبراير ١٩٩٦

إنهم لا يعرفون السلام إلا فوق جثثنا الهامدة
-- الزعيم الهندي تيكومسه، ١٨١١

قَدَرُ عِرقنا [الأنكلوسكسوني] هو الزحف [من الولايات المتحدة] غربا إلى أن يُتم دورة الأرض كلها ويعود إلى مهده [في الجزيرة البريطانية].
-- الجنرال آرثر مكآرثر ١٨٩٨

العالمية التي تسكننا

قبل ٣٦٠٠٠٠ سنة انفجر بركان عنيف في أقصى شمال ما يعرف الآن بتنزانيا وغطت حممه الأراضي المعشوشبة حوله. وفي عام ١٩٧٩ عثرت عالمة العصور الجيولوجية ماري ليكي Mary Leakey فيما تبقى من رماد تلك الحمم على آثار أقدام بشرية ربما كانت آثار أول من مشى على وجه الأرض من أجدادنا البشر.

وهناك على مرمى ٣٨٠ ألف كلم من الأرض، في سهل صحراوي قفر سماه البشر في لحظة من لحظات التفاؤل بـ «بحر السكون» يوجد الآن أثر قدم تركه أول إنسان مشى على سطح القمر عام ١٩٦٩.

بين الاثار التي تركناها في رماد البركان والاثار التي ختمناها على وجه القمر جادت إنسانيتنا بالكثير من المهارات والبراعات والحضارات إلى أن كسرت أغلالها الأرضية وراحت تصغي إلى رسائل إخوتنا الكونيين الذين شيدوا حضاراتهم على كواكب أو أقمار تبعد عنا ملايين السنوات الضوئية.

بين خطوة الرماد وخطوة القمر طوى الزمان خمسين ألف جيل من أجدادنا الذين لا نعرف من أسمائهم وملامحهم وعواطفهم وديارهم أكثر مما نعرف عن اخوتنا الذين يسكنون بين النجوم. على أننا نسمع بين الحين والآخر عن اكتشاف حضارة عظيمة هنا وحضارة عظيمة هناك، ونمتلىء بالفرحة حين نعلم أن الذين شادوا هذه الحضارات بشر مثلنا أحبوا وكرهوا، وتساءلوا وأجابوا، وظن بعضهم

أن لديه علم السموات والأرض وأنه قادر على أن يجيب عن كل الأسئلة المصيرية التي مازالت تعذب الانسان.

كل هذه الحضارات والأجيال الانسانية أسهمت في تقدمنا ورفاهيتنا وأغنت عقولنا ولطفت أخلاقنا وصنعت إنسانيتنا. وهي حضارات وأجيال لا يحتكرها عرق أو وطن أو ايدويولوجيا أو ذكورة أو أنوثة بل هي حضارات تنتمي إلى كل أرجاء هذه الأرض وأعراقها وذكورها وأناثها. إنها حضارة انسانيتنا التي نعرف نزرا ضئيلا جدا عنها ونجهل قدرا عظيما عن صانعيها وأذكيائها وعلمائها وحكمائها. إن عالمية الحضارة الانسانية لا تتجلى إلا في هذا التراث الذي يعيش في كل انسان منا من غير أن نعلم شيئا عن أشكال صانعيه وأوطانهم وأعراقهم وأجناسهم.

في هذه الصفحة التي تقرؤها الآن مثال على هذه العالمية التي تعيش معنا في كل تفصيل من تفاصيل حياتنا. هنا في هذه الصفحة يعيش أجدادنا الذين اكتشفوا النار، واخترعوا اللغة، وعرفوا الكيمياء، وصنعوا الأدوات، وابتدعوا الكتابة، واخترعوا التصوير وآلات الطباعة ووسائل النقل والاتصال، وهيأوا لنا كل ما يلزم لأن نصنع ورقة بيضاء نستطيع أن نكتب عليها شيئا نفهمه جميعا. لقد تعاون على تهيئة هذه السطور المطبوعة كل ذكاء الإنسانية دونما تمييز. إن لكل كلمة نقرؤها تاريخا عريقا حيا لا نعلم أين يبدأ. فنحن نعرف أن وراء كتابة هذه السطور بشرا مثلنا، ينتمي من ينتمي منهم إلى الصين أو بلاد الرافدين أو اليونان أو العرب أو أوروبا أو الذين سموا زورا وبهتانا باسم «الهنود الحمر»، لكننا نجهل الكثير عن أولئك الأجداد الذين عاشوا قبل اختراع الكتابة وأعدوا لنا كل ما يلزمنا لصناعة الكتابة والتاريخ والحضارات. لقد كانت لهم اختلافاتهم وفروقاتهم وخصوصياتهم العرقية أو الحضارية أو الجغرافية لكنهم جميعا انصهروا فينا وصاروا جزءا من تاريخ كل فرد منا، وأساسا لكل عمارة عقولنا ومعارفنا.

إن انسانيتنا تجمح بخيالاتها وهي تحبو على شواطىء الألف الثالث من تقويمها الميلادي حيث ما يزال التقدم يزداد نوعًا بينما يزداد التخلف كمًا، وحيث ماتزال الأسئلة الملازمة للانسان كما كانت منذ بداية الانسانية: أسئلة البداية والنهاية والمصير، أسئلة الخوف والدهشة، أسئلة الولادة والموت، ذلك السيل العرم من الـ «كيف» و الـ «لماذا» المُرّة . وإن معظم من عبر منا جسر تلك الليلة إلى الألف الثالث كان يسأل عن مستقبل هذه الانسانية؟ وأية إنسانية؟ وهل هناك

فعلا انسانية واحدة؟ ماهو المضمون الأخلاقي لهذه الانسانية؟ وما هي العواقب السياسية لاعطاء انسانيتنا وحدة ومضمونا أخلاقيا؟ وهل سيتمكن البشر من تخطي ولاءاتهم الضيقة وانتماءاتهم المشرذمة إلى ما هو أرحب من الحزب والعشيرة والطائفة والدولة والوطن والعرق والذكورة والأنوثة والأيديولوجيات والعقائد المتحاربة؟ في تلك الليلة لم يكن السؤال الملح سؤالا عما إذا كانت الانسانية قادرة على صناعة مستقبل أفضل أو أعدل أو أكثر حرية أو رخاء، بل لربما كانت في تلك اللحظة أحوج إلى التساؤل عما تبقى من هذه الانسانية وعما إذا كان سيكتب لها النجاة من وحشية «القوى العمياء» لتنعم بالمستقبل.

.. والعالمية التي غبنا عنها

قبل ألف سنة، حين احتفل «العالم» بانقضاء ألف سنة من تقويمه الميلادي لم يكن التقويم الميلادي عالميا، ولم تكن العالمية ذات مركزية أوروبية أو محتكرة لمفاهيم الغرب وقوته كما هي في نهاية هذا الألف الذي شيعناه. وفي تلك الليلة كان الكثير من الأوروبيين يرون العدد «1000» مفهوما شديد التعقيد لا يمكن تصوره أو عده أو حسابه، ذلك لأن الصفر نفسه لم يكن معروفا لديهم، وكان المتنورون من أهل حساباتهم يعتقدون بأن المسلمين -باستخدامهم الصفر في أعدادهم -إنما يتعاطون بالعدم! وفي تلك الليلة الألفية الأولى كان القرن الرابع الهجري قد شاخ وبلغ عقده الأخير، وكان التقويم الهجري عالميا أو شبه عالمي، فقد كان شائعا من البروڤانس الفرنسي إلى ماوراء القوقاز، أي إنه كان تقويم العالم المتحضر المفتون بقرطبة ودمشق وبغداد والقاهرة والقدس وغيرها من هذه النجوم التي «تغرب» عن سمائنا واحدة بعد واحدة.

وعالمية ذلك الزمان تفسر عالمية هذا اليوم. فالعالمية لا تفرضها الجيوش والأسلحة بل تنتشر انتشار الهواء مع نهر العطاء العلمي والابداعي الذي يفرش روحه الخضراء على ضفاف العقول والأفئدة. في نهاية الألف الميلادي الأول حين كانت أوروبا تعيش ما يسمى بظلمات عصورها الوسطى كانت عالمية العطاء في الآداب والعلوم والفلسفة والطب لأبي الوفاء الفلكي الرياضي، وللفارابي الفيلسوف الموسيقي، ولعلي بن العباس الطبيب الجراح، وللمتنبي الشاعر. في تلك الليلة الألفية كانت أوروبا تحتفل أيضا بالذكرى السنوية الثامنة لاستخدام الأعداد العربية في حساباتها بعد أن كانت تستخدم الحروف.

على أننا نعيش أحيانا في وهم مقاومة العالمية بالتقوقع والانغلاق والسلبية

والخوف. وهذا ما يزيد قابليتنا لتسميم مواهبنا وتعطيل عقولنا واغلاق الأبواب في وجه عطائنا، وهو الطريق الذي لا طريق غيره إلى المساهمة في هذه العالمية وتوليف ملامحها. ومثلما أننا لا نستسيغ عالمية تلقى علينا بالصواريخ والقاذفات وتحت جنح العباءات فإننا كذلك لا نستطيع أن نفر من «عالمية» نستهلكها ونلبسها ونتخاطب بها ونقتل بعضنا بعضا بأسلحتها، ونتحالف معها على أهلنا وحقوقنا وخصائص تحدينا.. ثم نكتفي بأن نوسعها سبابا وشتما. إننا نحن الذين نفرض على أنفسنا هذه العالمية كلما ضاقت ولاءاتنا وانتماءاتنا ونشاطات عقولنا ومواهبنا، وكلما أمعن وعينا في الغياب عن مصيرنا وأمانة عقولنا.

بين نهاية ذلك الألف الأول ونهاية هذا الألف الثاني لم تتغير طبيعة العالمية ومركزيتها وهويتها وقضاياها وقيمها وحسب، بل تغيرت طبيعة الخطر الذي يهدد العالم. فبينما كان الألف الأول ينتهي بزلزال في دمشق وطاعون في أوروبا وتخرصات عن قرب قيامة العالم؛ انتهى الألف الثاني وخطر «نهاية التاريخ» كما رسمها العهد القديم بدم كل هذه الانسانية هي من أعظم خصائص هذه العالمية التي انمحت بصماتنا عنها ولم نعد نجد في ظلها إلا وطنا محتلا، وارادة مشلولة، وحرية مسلوبة، وفاعلية مختلة، وحماسات عشواء.

إن انحسارنا -عالميا- مع نهاية هذا الألف الثاني قد انتهى بنا وبالألف الثاني خارج العالم. وهاهي تخرصات قيامة العالم و«نهاية التاريخ» بالصورة الدموية التي رسمها العهد القديم وجعلنا أول ضحاياها تُبحث على مستوى سياسي في الكونغرس الأميركي (٢ نوفمبر ١٩٩٥) بعد أن ملأت الولايات المتحدة وأخذت تشحن المشاعر والغرائز بشهوة الدم.

في تلك الليلة الأخيرة التي انزاحت ستارتها عن الألف الثالث ختمت الانسانية قرنا من أكثر القرون التي عاشتها دموية وعنفا وضحايا، ومن أسخاها علما ووفرة ومحاصيل. حتى اللحظة الأخيرة من ١٩٩٥؛ بلغ عدد الحروب التي نشبت على مدى ٩٥ عاما ١٣٩ حربا كان «الغرب الرأسمالي» طرفا ظاهرا أو خفيا في ١٢٧ حربا منها، وكان عدد الذين سقطوا في حروب هذا القرن أكثر من كل ما حصدته الحروب بين البشر منذ بداية التاريخ: ١٢٢ مليون إنسان بينهم نصف مليون طفل عراقي ماتوا [في السنوات الثلاث الأولى] من الحصار الاقتصادي (Trouw الألمانية، ١٩٩٤/٦/٣٠)، وهو أكثر من ضعفي ضحايا التطهير العرقي في البوسنة.

سيظل هذا القرن الدموي المشؤوم محفورا في ذاكرة البشر وعلامة على هذه

العالمية التي انمحت خطوطنا وألواننا من ملامحها. وسيبقى التاريخ يشير إليه بأنه قرن الموت، وأنه قرن التقدم والخصب والوفرة والتجويع حتى الموت. إن «ثمن النماء الغربي في ظل هذه العالمية هو ٧٠٠ مليون إنسان لا يملكون قوت يومهم، يموت منهم في كل يوم أربعون ألفا موت الذباب، بينهم ٣٤ ألف طفل دون الخامسة... وإن النماء الرأسمالي الغربي يلقي على العالم الثالث كل يومين قنبلة غذائية معادلة لقنبلة هيروشيما» (International Herald Tribune، ٩ يونيو ١٩٩٤)، وإن ضحاياه في هذا القرن أكثر من كل ضحايا الحربين العالميتين.

في هذا القرن الذي سقطت فيه ضحايا الحروب في كل القارات (بمعدل ٤٥٠٠ قتيل يوميا)؛ استطاع التقدم الطبي أن يبعد شبح الموت بالأوبئة التقليدية عن معظم من يسكن في فردوس الشمال من هذه القارات. وفي هذا القرن الذي أكلت فيه المجاعات مئات الملايين من البشر كان الفائض الزراعي الذي تحرقه أو تدمره الولايات المتحدة وحدها كافيا لانقاذ كل الذين ماتوا جوعا. إن ما يحتاجه العالم لانقاذ كل وفيات أطفاله ولتوصيل مياه الشرب النقية إلى كل بيت في العالم الثالث هو ٢٥ مليار دولار، وهذا المبلغ أقل مما تنفقه الولايات المتحدة سنويا على شرب البيرة أو ما تنفقه أوروبا على شرب النبيذ (North West Synthesis, N: O).

في ظل هذه العالمية المسكونة بأخلاق السوق وأصولية «نهاية التاريخ» ضيّع التقدم العلمي انسانيته كما فقد الخصب معناه وقلبه الخصب. في نهاية القرن الماضي كان الاقتصادي المتطير مالتوس يظن أن أرضنا الطيبة السخية ستشح بالقوت على ساكنيها، وقد بدا أن تطيره قد طار مع تطور الأدوات الزراعية والتقدم العلمي الذي سمح بري أفضل وحصاد أكمل ووقاية أسلم من الآفات والحشرات. إن اثنين بالمئة من زراعة الولايات المتحدة ومحاصيلها الغذائية تكفي حاجتها. أما المتبقي من هذا الفائض فما زالت هي ودول الغرب الرأسمالي تشهره سلاحا في وجه الجائعين والغرثى. وبفضل هذا التقدم العلمي خرجت الصين من نفق المجاعات التاريخية ومن ويلات التدمير والنهب للفترة الاستعمارية البريطانية، وهاهي تنتج ما يزيد عن حاجة سكانها الذين يبلغون أربعة أضعاف سكان الولايات المتحدة، وهاهي نسبة الفقراء فيها- برغم كل التهريج الاعلامي الغربي- أقل بأربع مرات من نسبة الفقراء في الولايات المتحدة الذين يموتون جوعا بالآلاف دون مأوى في طرقات مانهاتن وعلى مرأى من شرفات الكونغرس والبيت الأبيض.

هزيمة «المشروع السياسي للرسول العربي»

شهد هذا القرن ذروة التقدم العلمي والطبي لكنه كان بحق قرن الموت والضحايا، وقرن الخيبات السياسية والتمييز والحروب العالمية، وقرن اقتلاع جذور شجرة «المشروع السياسي العربي» الذي بناه الرسول بيديه، وهو المشروع الذي صنع أمتنا بكل ألوان طيفها ورسم الملامح الأساسية لهويتها التاريخية وحضارتها.

هذا القرن الذي افتتحته بريطانيا وحلفاؤها العرب بمخطط قتل «الرجل المريض» واجهاض مشروع «الدولة العربية» وتمزيق أشلائها ونهب ثرواتها أنهته بريطانيا ووريثتها الأميركية وحلفاؤهما العرب باقتلاع شجرة «المشروع السياسي المحمدي» من روضتها التي نبتت فيها. في هذا القرن شيعت بريطانيا «دولة الاسلام التاريخية»، واختفت الدولة العربية فلم يبق إلا صورها المشوهة، صورة الدولة التابعة المحمية. لقد قُصقصت هذه الكيانات ومزقت واحيطت بصدفة عازلة من الشروط الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي يستحيل معها احياء مفهوم الأمة دون مواجهة «الاستعمار الداخلي» الذي يمثله النظام العربي؟ كيف سيقتنع الكويتي أو القطري بأنه ينتمي إلى الأمة التي ينتمي إليها السوداني أو الفلسطيني والفروقات الاقتصادية التي خلقتها بريطانيا ثم عمّقها خنازير بريطانيا بينهما عمدا ما تزال ترفع جدرانها التي لن تزول بالحوار ولا بالجوار ولا بالصدقات المهينة.

لأول مرة في هذه الألف سنة التي شيعناها قبل سنوات صار ابن هذا الوطن سجينا في حدود استعمارية لا يخرج منها إلا بذل، ولا يدخل في غيرها إلا بذل. ولأول مرة في هذه الألفية سقطت كل الديار الاسلامية المقدسة من أيدي أهلها وتوحد حال القبلتين. إن المشروع السياسي الذي أطلق هذه «الأمم» العربية من دولة المدينة سياسيا ومن غزوة بدر عسكريا، فأعطاها هويتها وبنى حضارتها وبسط جناحيها على نصف كوكب الأرض قد استدار على نفسه الآن ٣٦٠ درجة وتقهقر إلى نقطة الصفر مهانا مهزوما مسحوقا تحت دبابة «الأصدقاء» وفي النقطة المقدسة التي انطلق منها. ومع ذلك فاننا نستخدم كل مواهب افتراس المنطق لانكار هذه الهزيمة والمكابرة على حقيقتها وطبيعتها وأخطارها، ونحاول تزيين بشاعتها، كما نستخدم كل دمامات بلاغتنا وأغاليطها وحماقاتها لتحويل هذه الهزيمة والاحتلال إلى بطولات وانتصارات وأمجاد.

هذا الزمان الذي ودعنا ألف سنة من حياته لم يشهد أمة تملك عبقرية

التسامح الرومانسي مع الذين يسوقونها من مذبحة إلى مذبحة مثل أمتنا! ولا شك في أن التاريخ لم يعرف أمة على وجه الأرض تعبىء كل ما لديها من طاقات وخيرات وبلاغات وعواطف وغرائز واذاعات ومنابر وكتب مقدسة وفرق موسيقية لتأجيج وحشية مفترسيها والدفاع عنهم وتزيين افتراسهم لها ولثقافتها وأرضها ومقدساتها وثرواتها ودم أطفالها مثل أمتنا. إننا أمام هذا الحطام الكارثي للمشروع السياسي المؤسس لحضارتنا العربية الإسلامية لا نجد حرجا في التوحيد بين هـــذه الهزيمة وبين ارادة الله، ولا نتورع عن المطابقة بين الأسس الثقافية والأخلاقية والدينية والسياسية لحضارتنا وبين هذا الواقع الذي فضح نتن وعينا الحديث وأخلاقنا، بدءا من بكائنا على قبر مصاصي دمائنا ونحن «نفرم» قوى الأصالة التي تتحدى استمرار «مص دمائنا»، مرورا بتوسلنا وتسولنا على عتبات البيت الأبيض، وانتهاء بمطابقتنا البهلوانية بين «عالمية» الاسلام وبين ما يريده الوحش الأعظم في غابة العالم.

.. وهزيمته ثقافيا

كان لا بد لهذه الهزيمة على الأرض من أن تواكبها هزيمة للعقول لكي يشيّع «الاستعمار الصديق» مقدساتنا المحتلة وعقلنا المحتل في جنازة واحدة. فلأجل أن تكتمل فصول الفاجعة لا بد من تسوية الثقافة بالأرض وإلحاق التاريخ بالجغرافيا، ولأجل «تجفيف الينابيع» لا بد من تفريغ معجم هذه الحضارة المهزومة من معانيه وحقنه بالمعاني التي تمجد الهزيمة. بذلك تختفي من أفواه الناس وعقولهم كل المعاني والقيم التي تشكل خطرا على الهزيمة وما ترتب عليها من إعادة صياغة لوعينا لأنفسنا والعالم، وإعادة صياغة لهوية الأنا والآخر، وإعادة صياغة لذاكرتنا ومعنى وجودنا، وإعادة صياغة لحريتنا وارادتنا وتعصبنا وتسامحنا وقيمنا، واعادة صياغة لعلاقتنا بثرواتنا الطبيعية والشكل الاجتماعي والسياسي المناسب للحالة الشاذة من وجودنا، واعادة صياغة لحاجتنا إلى القوة العسكرية وشكلها ووجه استخدامها وطبيعة علاقتنا بها، وإعادة صياغة لما هو مقدس وما ليس بمقدس، واعادة صياغة لمن ينبغي جهاده و«فرمه» وافناؤه بالحصار والجوع والخسة ومن يجب مسالمته وحبه وذرف الدموع على جيفته، وأخيرا اعادة صياغة لتاريخنا وتراثنا وكل ما يصنع من وجودنا مقبرة خرافية للاستهلاك والتكاثر والموت.

الحرب على الأصولية والحرب على الأصالة

في ظل هذه الصياغة التبعية تشن الولايات المتحدة واسرائيل ومحمياتهما العربية أشرس حرب ابادة لخصائص مقاومتنا وتحدينا الحضاري. فباسم الحرب على «الأصولية» تتعرض «أصالة» المسلم والمسيحي والرجعي والتقدمي والمؤمن والملحد والعربي والأعجمي وكل من يقاوم الاحتلال والهيمنة أو يعارض هذه الأنظمة التي لا همّ لها سوى تزيين الاحتلال والهيمنة لحملة تشويه شاملة كاملة، بدءا من أخلاقه ودينه وتاريخه وحضارته وانتهاء بشكله الجسدي وخصائص انسانيته بحيث لا ينفع مع هذا «الوحش الأصولي» إلا إراقة دمه والتضحية المقدسة بوجوده.

هناك حملة ترويض «عالمية» لهذا «الوحش» الذي يرفض الاحتلال والهيمنة. فكما أن هناك بقرا وغنما وخنازير وكلابا ودواجن يجب أن يكون هناك حيوان أليف آخر اسمه «الحيوان العربي الأليف» أو «الحيوان المسلم الأليف» الذي يعطي بجبرية القدر المحتوم صوفه وحليبه وسخاله...وحياته إذا لزمت طقوس التضحية، ثم يبكي على جيفة سيده الجنرال رابين مثل «الكلب الأمين».

هذا التشويه الانساني للضحية كما عرفته أدبيات إبادة الهنود الحمر منذ رواية *Nick of the Woods* في القرن الثامن عشر لم تتغير؛ لا في حرب تدمير الاتحاد السوفياتي، ولا في حرب إبادة شعب فلسطين واغتصاب بلاده، ولا في الحرب المضرمة لإبادة خصائص أصالتنا ومقاومتنا وتحدينا الحضاري. إن أنظمتنا التي لم تعد وطنية ولا قومية ولا اسلامية ولا علمانية ولا عربية ولا اشتراكية ولا راديكالية ولا رجعية ولا تقدمية ولا ديمقراطية ولا استبدادية ولا حزبية ولا طائفية ولا قبلية ولا مدنية ولا أي صفة تنتمي إلى التاريخ أو الواقع أو أي معجم سياسي معروف؛ دخلت في دوامة العنف الأعمى مع شعوبها دفاعا عن الهيمنة والاحتلال لكي تضمن قوى الاحتلال والهيمنة وجودها وتؤمن استمرارها. وهي اليوم تشكل خطرا حقيقيا على وجودنا ومصيرنا وأخلاقنا وقيمنا وحضارتنا وتهدد حياة كل حرّ منا.

بدلا من أن تشن هذه الأنظمة حربها على الأصولية «السَّبتية» التي تحرق كل طاقاتها الانسانية وقواها العقلية وحماساتها الدينية لتكفير البشر وانكار تعدد الآراء ورفض المجتمع المدني وتقفيص المرأة وتكسير «قناني الوسكي» في هذا الزمن الذي ترسف فيه القبلتان في قيود الاحتلال ويبكي فيه صناديد العرب على جيفة من كسر رقبة هذه الأمة وعظامها فان معظم هذه الأنظمة تدعم هذه الأصولية «السَّبتية» العقيمة وتعيش على حماقاتها وتدفع مرتبات ميليشياتها وتنظم

الكثير من جرائمها فيما هي تشن -باسم الحرب على الأصولية- حرب إبادة على قوى «الأصالة» التي ترفض الاحتلال والهيمنة وتشكل خط الدفاع الأخير لوجودنا الحضاري.

مصادرة حوار الحضارات سياسيا

مثل هذا المناخ يجعل «حوار الحضارات» مع القوى الاستعمارية التي تتنطح لتمثيل الغرب صورة كاريكاتورية لحوار المزارع مع بقرته، ويسمح برسم علامة استفهام فلكية حول دوافع مثل هذا الحوار «النخاسي» الذي ترسم هذه القوى الاستعمارية طبيعته، وتملك تقنياته، وتحدد وجهته، وتستأثر بجدواه. وهو حوار ملغوم كاذب لئيم تتبنّته أنظمة المستعمرات الأميركية وشجعت عليه انطلاقا من ثلاث مسلمات لئيمة:

أولها أننا نحن العرب مذنبون مع الغرب (وهذا الغرب المقصود بالغفران هو أميركا وبريطانيا ومعهما قفتهما إسرائيل) وأن علينا لذلك تحسين صورتنا هناك وكأننا نحن الذين نحتل، ونهيمن، وننهب، ونقتل، ونحاصر، ونقيم في فسطاط الولايات المتحدة وإماراتها ومشيخاتها وعتباتها المقدسة أنظمة عميلة فاسدة مستبدة نحميها بالجيوش والأساطيل والقواعد العسكرية التي ننطلق منها لقصف الأميركيين واحتلال ما عزّ من أراضيهم.

وثانيها أن ذنوبنا (تجاه أميركا وبريطانيا، وإسرائيل أيضا) لا يقرها الإسلام لأن أخلاق الإسلام الحنيف تتطابق تماما مع ما يريده وحش الغابة ولا بد بالتالي من العودة إلى ينابيع الإسلام وتفسير رسالته وقرآنه وتاريخه وبطولاته وأحاديث نبيه بما يرضي وحش الغابة ويقضي على ما تبقى «جيوب مقاومتنا اليائسة» وخيرات أرضنا.

وثالثها، كما ذكرت من قبل: ليس هناك تضليل أخطر من وصف «ما يجري» بأنه صراع مع الغرب، أو صراع حضارات. أو حرب على الإسلام. وإنه لمن الغريب حقا الإعتقاد بأن هناك صراعا جغرافيا مع الغرب ومواقف كل الشعوب والدول الغربية (باستثناء الولايات المتحدة وقفتها البريطانية) بدءا من دول بحر الشمال كالدانمارك والسويد والنروج وانتهاء بدول المتوسط كإيطاليا واليونان أكثر نبلا وإنسانية وحرصا على العرب والمسلمين من معظم الأنظمة العربية؟ أي صراع تواجهنا به فنلندا وألمانيا ولوكسمبورغ وسويسرا؟ إن هذه الإصطلاحات الفضفاضة لاتبدد جهودنا وطاقاتنا وحسب بل إنها تصرف أنظارنا عن مصدر

الخطر الحقيقي الذي يهدد بقاءنا الثقافي والجسدي وكل مصادر هذا البقاء وعناصره. أليس أمرا ذا دلالة أن الذين يروجون لهذه الصراعات الوهمية ومؤتمراتها العبثية هم أنظمة المستعمرات الأميركية المشغولة الآن بتحسين صورتنا كأننا نحتل كاليفورنيا ونسيطر على آبار وعائدات نفط تكساس، ونعين الكوبيين على احتلال فلوريدا، وننصب قواعدنا العسكرية فوق أراضي أوهايو وبنسلڤانيا، ونضرب حصارا وحشيا على أريزونا نقتل فيه خمسة آلاف طفل من أطفالها شهريا...الخ؟

هل يمكن لمثل هذا الحوار الملغوم من جذوره بالموقف السياسي والمعلق -في أحسن أحواله- على نجاح حملة ترويض الآخر أن يساهم في توسيع ولاءاتنا وتجاوز مركزياتنا وبناء مستقبل يصالح خصوصياتنا الانسانية ويضمها في باقة واحدة؟ هل يمكن لمثل هذا الحوار المعلق على اعادة صياغة عقل الآخر وأخلاقه وطريقة ولادته وموته أن يكشف عن حاجتنا المصيرية إلى تعانق كل ما هو إنساني في هوياتنا المختلفة، وأن يصل بحوار الحضارات فعلا إلى كسر الحواجز وبناء الجسور وتأسيس ذلك المشروع الكوكبي لمستقبل الانسان ومصيره؟

إن هرولة أنظمة الاستعمار الداخلي وسفاراتها إلى عقد مؤتمرات لحوار الحضارات ليس أكثر من عمل مسرحي بيزنطي متهافت لأن طبيعة مثل هذا الحوار الذي تخلقه السياسة تقتله السياسة، ولأن هدفه الأول والأخير -عرفوا أم جهلوا- هو تخبئة عدونا الحقيقي وراء ستارة حمراء تحيل كل مقاومتنا إلى ما يشبه صراع الثيران. حوار الثقافات لا يدور بقرار ولا يتوقف بقرار.

في ظل هذا الواقع الذي فقدنا فيه حقنا في القرار السياسي والعسكري والاقتصادي وصارت جملة سياسة «الأنا» مرسومة من قبل «الآخر» تضاعف خطر المصادرة السياسية على حوار الحضارات. فالمصادرة تزيد في عمق الجراح وتلهب لغة الخطاب وتستثير العنف مثلما أنها تخصب الأرض لكثير من الطفيليات والأعشاب السامة. إن ظاهرة الفلسطينيَيْن سليمان محمد دياب وصلاح أحمد سليمان اللذين انضما إلى حزب الليكود لفتح «الحوار الحضاري» بهدف نسف سياسة التطرف الصهيوني من الداخل ليست ظاهرة فريدة في مسيرة المصادرات السياسية لحوار الحضارات ففي واشنطن عدد من المنظمات والهيئات العربية والاسلامية التي تعمل مع «الليكود الأميركي» و«المنظمات الصهيونية الأميركية» على طريقتهما. وإذا كان بُعد المسافة لا يسمح لي بالحكم على المبررات والدوافع التي ألهمت هذين الفلسطينيين اليائسين من إخوانهما العرب وهما يرونهم

منهمكين في القضاء على ما تبقى من خصائص المقاومة والتحدي للاحتلال والهيمنة، ومتفانين في التوسل لواشنطن، فإن قربي (الجغرافي) من هذه المنظمات العربية والاسلامية في واشنطن يكاد يطفىء قلبي ويملؤني بالاحباط واليأس. هذه «الحوارات الحضارية أو الدينية» المصادرة سياسيا ليست إلا تضليلا عن مصدر الخطر الذي يستعمرنا وينهبنا ويهددنا ويهدد كل المعاني النبيلة لحوار الحضارات وتعايش الأديان، ذلك لأن «سياسة الأنا المرسومة من قبل الآخر» تسحب ظلها الأسود من عواصم المحميات العربية إلى العاصمة الأميركية، ولهذا فإن جل جهود هذه المنظمات والمجالس التي أنشاتها سفارات العواصم المحمية ومولتها لن تنتهي إلا إلى ما انتهت إليه تلك العواصم.

الغرام القاتل والحوار مع قوى التغيير

إن حوارنا (أو مجابهتنا مع القوى الاستعمارية في) الغرب منذ أن صار الغرب غربا والشرق شرقا لم تنقطع ثانية واحدة على المستوى الاجتماعي والثقافي والديني والعسكري ولا أظنهما سينقطعان لحظة واحدة في المنظور القريب ولا البعيد. ولكنني لست أدري لماذا ينصرف الذهن فورا -عند التفكير في الحضارات أو في حوار الحضارات- إلى ثلاثة أوهام خطيرة شائعة:

أولها الاعتقاد بأن الحوار الحضاري لايتم إلا في المؤتمرات والندوات حيث يبدأ حين ندخل قاعة المؤتمر ثم يتوقف عند خروجنا.

وثانيها: أن المستعمرات اليهودية في عقولنا جعلتنا نعتقد بأن العالم ما قبل ظهور الاسلام لم يعرف غير اليهود وما فرّخته اليهودية. وهذا ما جعلنا نهمل أو نحتقر أو نعادي أو نكفّر الحضارات والمدنيات التي صنعت انسانيتنا على ضفاف النيل والرافدين والصين والهند واميركا وننصرف إلى تلويث أدمغتنا بخرافات متسيبين عاشوا وماتوا على حلم تدمير هذه الحضارات.

وثالثها أن المركزية الأنكلوسكسونية للعالم والتاريخ والطبيعة صارت إحدى مسلمات عقولنا فحجبتنا عن كلية الحضارة الغربية كما حجبتنا عن معظم حضارات العالم وتحكمت بتفسيرنا لحضارتنا العربية الإسلامية نفسها. فنحن لا نفكر إلا في التحالف مع هذه القوى الاستعمارية الأنكلوسكسونية في الغرب الرأسمالي وننسى الأمم والشعوب والقوى الصديقة أو المحايدة في الغرب وغير الغرب. صحيح أن هذه الدول الاستعمارية المتمثلة ببريطانيا والولايات المتحدة قوة لابد لحوار الحضارات من أن يشملها، لكن ليس صحيحا على الاطلاق أن يبقى

الحوار مقتصرا عليها، بل لربما كان حوارنا وتحالفنا مع دول أوروبا الصديقة والمحايدة ومع حضارات العالم الأخرى أجدى لنا وأجدى لحوارنا مع هاتين القوتين الاستعماريتين اللتين تهددان الآن مصيرنا ووجودنا وحضارتنا وحياة كل فرد حرّ منا. ولعل السؤال: لماذا لا نتحاور ونتحالف مع أوروبا الصديقة أو مع الصين أو افريقيا أو الهند أو حتى مع «قوى التغيير» داخل بريطانيا والولايات المتحدة من أكثر الأسئلة الجوهرية التي يجب أن تسبق الحوار وتساعد على نجاحه بعد أن لم تترك بريطانيا وأميركا حبلا من حبال ودنا لم تجعله مشنقة لنا.

إن تجربة أمتنا مع سموم الصداقة البريطانية ثم الأميركية طوال هذا القرن كافية لايقاظ غريزة البقاء عند أحط البهائم.

ولعل أهم فوائد الحوار والتحالف مع دول أوروبا أو مع الصين أو الهند أو «قوى التغيير» في الولايات المتحدة مثلا هي محاولة التخفيف من تلك الجرع القاتلة لذلك الغرام السام، وعدم السماح لواشنطن ومستعمراتها العربية بتكرار عداوتنا الحمقاء للاتحاد السوفياتي التي وصلت بنا في النهاية إلى قطع شجرة «المشروع السياسي المحمدي» من منبتها بمنشار «صداقتنا» الشاذة مع الولايات المتحدة.

قبل الحديث عن المسلمات المضللة لعمائم «لانغلي» وفقهاء الهيمنة والاحتلال لا بد من مواجهة هؤلاء بأن ابتذال الاسلام ومقدساته وثرواته في حرب صليبية على الاتحاد السوفياتي لم تؤذ بويلاتها شيئا في العالم أكثر من الاسلام ومقدساته وثرواته. إن هذا «الدب السوفياتي» الذي جعلته عمائم «لانغلي» وفقهاء الهيمنة والاحتلال رمزا للالحاد والكفر، وقدمت لنا عداوته ومحاربته على كل عدو وحرب، قد كشفت التجربة عن أن «الله قد سخره» لنا أكثر من نصف قرن ليكون الحائل الوحيد.. نعم كان الحائل الوحيد دون دخول دبابة الاحتلال بمثل هذه الفجارة والاستهتار إلى مهد الاسلام ودون هذه النهاية الفاجعة للقبلتين ودون هذا الانهيار المريع للمشروع السياسي الذي أطلق به محمد بن عبدالله هذه الأمة وحضارتها العربية الاسلامية تحت أقدام أصدقائنا جنرالات البنتاغون.

بهذا الوعي الزائف للخطر، قدمنا لأحفادالصليبيين ما عجزت عنه كل الحملات الصليبية، وها نحن من جديد نشتري موتنا بحياتنا، وها نحن نكرر حربنا الحمقاء على الاتحاد السوفياتي، نكررها مع الصين ومع أوروبا الجديدة ونسلم بذلك مصيرنا ومصير الانسانية لأشرس الأيديولوجيات عداوة وظلما للانسان: «ايديولوجية السوق» التي لا يدين «رجل الدولة» في واشنطن بدين

غيرها، ولا يعبد ربا سواها، ولا يعرف حقوق انسان إلا من خلالها، ولا يمارس ديمقراطية إلا بما يناسبها، ولا يتخلق بأخلاق تتعارض معها.

« أيديولوجية السوق » -لا الشعارات الاستهلاكية- هي التي تحدد سياسة واشنطن من الاسلام والمسلمين. إن رجل الدولة في واشنطن لا يمانع أن ترفع مئذنتك على سطح البيت الأبيض، ولا أن تعمر مسجدا فوق قبة الكابيتول أو في حدائق « لانغلي » حيث الاستخبارات المركزية. إن « رجل الدولة » في واشنطن مستعد لأن يصلي ويصوم ويطلق لحيته ويسمعك أعذب الكلام عن الاسلام وعظمته وانسانيته، لكنه أبدا لن يسمح لك - حتى بالاعتقاد- بأي معنى يهدد هيمنته ونهبه، أو يتعارض مع حلفه الاستراتيجي مع الصهيونية. هؤلاء الذين ظلوا على مدى أربعمائة سنة يرددون « لا يصلح الهندي الأحمر إلا بعد أن يموت » يرفعون اليوم للهندي الأحمر تمثالا فوق قبة الكونغرس. فاذا كنت لا تبحث إلا حرية الصوم والصلاة وممارسة الشعائر وتعمير المساجد بالرخام والذهب والدفاع عن قضايا الاسلام في « بورما » و« الماو ماو » فأهلا ومرحبا بك وبإسلامك ورخامك وذهبك واذاعاتك وصحفك وماوماوك. إن رجل الدولة سيقف في صفك ويسمعك - وهو يعلك لحمك ويتلمظ بدمك - خطبا عصماء في عظمة اسلامك « المستسلم »، ولعله بعد أن يقضي منك وطره سيرفع لك تمثالا فوق تمثال أخيك الهندي الأحمر. أما إذا كنت تفكر في أي معنى يرفض الهيمنة و النهب واحتلال القبلتين فهيا إلى « حوار حضاري » مع جنرالات البنتاغون.

وسل إخواننا الهنود الذين سبقونا في الإيمان، فهم أفضل من يعرفهم. سل باشغنتاكيلياس، زعيم هنود دولاوير الذي خبر هؤلاء « الأصدقاء » فقال كلمته المأثورة (١٧٨٧):

> إنهم يفعلون ما يحلو لهم، يستعبدون كل من ليس من لونهم. يريدون أن يجعلوا منا عبيدا، وحين لا يتحقق لهم ذلك يقتلوننا. إياك أن تثق بكلامهم، أو وعودهم. إنها أحابيل، صدقني إنها أحابيل، فأنا أعرف سكاكينهم الطويلة جيدا.